كتاب البرهان فى وجوه البيان

للدكتور على حسن عبـــد القادر

« تصحيح خطأ علمى، وتحقيق شخصية كتاب ، ورد اعتبار على مؤلف طغى على اسمه الزمان »

كتاب « البرهان فى وجوه البيان » لأبى الحسين إسحق ابن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، طبع جزء منه قدر ثلثه باسم « نقد النثر » ، حرره وأخرجه الدكتور طه حسين ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ، منسوباً إلى أبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ . وقد اعتمد مخرجا « نقد النثر » على مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ٢٤٤ من فهرس درينبرغ.

وقد عثرنا على مخطوطة لهذا الكتاب بمكتبة تشستربيتى رقم G767 تحت عنوان « كتاب البرهان فى وجوه البيان » ، وعند المقابلة بينها وبين كتاب « نقد النثر » المطبوع وجدناهما يتفقان فى القدر المطبوع ، وتزيد المخطوطة التى بأيدينا على المطبوعة بمقدار ثلثى الكتاب تقريباً . ولم نشك فى أن هذا القدر الزائد إنما هو جزء أصلى من الكتاب قد سقط منه فى المخطوطة الأسكوريالية ، وذلك أن المؤلف قد بنى كتابه على أربعة وجوه للبيان : —

البيان الأول الاعتبار ، البيان الثانى الاعتقاد ، البيان الثالث العبارة ، البيان الرابع الكتاب . والبيان الرابع (الذى هو الكتاب) غير موجود فى النسخة المطبوعة ، وقد علل محقق هذه النسخة المبتورة هذا النقص بادعائه أن المؤلف قد ضمن الباب الثالث (وهو العبارة) الكلام على الوجه الرابع وهو الكتاب .

وجعل بهذه الدعوى الكتاب كاملا بذاته ، وهى دعوى قد فرضها المحقق على الكتاب فرضاً وجزم بها من غير فحص له ، فإنه لو كان قد فحص الجزء الذى بيده من الكتاب لرأى أن المؤلف قد نبه فى أثناء الكتاب على أشياء سيذكرها بعد ، ومع ذلك لم يأت لها ذكر . فمن ذلك قول المؤلف (صفحة ١١٨ من طبعة دار الكتب) : « وأما الحديث ، فهو ما يجرى بين الناس فى مخاطباتهم ومناقلاتهم ومجالسهم ، وله وجوه كثيرة : فمنها الجد والهزل والسخف والجزل ، والحسن والقبيح والملحون والفصيح ، والخطأ والصواب والصدق والكذب والنافع والضار والحق والباطل والناقص والتام والمردود والمقبول والمهم والفضول والبليغ والعيى ؛ ثم جاء الكلام بعد ذلك عن الجد والهزل والسخيف والجزل والحسن والقبيح والملحون والفصيح والخطأ والصواب ، ولكن القول فى الخطأ والصواب لم يتم ، كما أن القول فى الصدق والكذب والوجوه الأخرى الباقية لم يأت قط . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جاء فى باب تأليف العبارة (ص ٤٤ — ٤٥ من طبعة دار الكتب) : « وقد ذكر الخليل وغيره من أوزان الشعر وقوافيه مايغنى من نظر فيها ... إلا أنا نذكر جملة من ذلك فى باب استخراج المعمى تدعو الضرورة إلى ذكرها فيه إن شاء الله » .

وليس فى نقد النثر كما نشر أى ذكر أو إشارة إلى باب المعمى وذكر العروض والقافية . ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه جاء فى آخر النسخة المطبوعة هذه العبارة : « وأما مراتب القول ومراتب المستمعين له ، فقد تقدم القول فيه وبالله التوفيق » .

وإذا تصفحنا كل ما جاء فى النسخة المطبوعة لم نجد ذكراً أو إشارة « لمراتب القول » ولا « لمراتب المستمعين له » على الحقيقة ؛ وبهذا يظهر أن المخطوطة الأسكوريالية والكتاب كما طبع ناقصان نقصاً كبيراً ، وأن محقق الكتاب لم ينتبه إلى هذا النقص الواضح أو لعله أغمض عينيه عن هذا النقص ، وتلمس فى بعض الأحيان تعللات لا تقوم وفرضها على الكتاب ، بدليل أننا نجد كل هذا المفقود قد جاء بالنسخة المخطوطة التى بأيدينا ، فقد جاء فيها ذكر البيان الرابع وهو الكتاب ، واستغرق من أصل الكتاب جزءاً كبيراً أصلياً ، كما جاء فيها الكلام على باب المعمى وذكر العروض والقافية بتفصيل كامل واف . وكذلك جاء فيها ما بقى من وجوه الحديث وجهاً وجهاً ، وكذلك مراتب القول ومراتب المستمعين له مرتبة مرتبة ، فكانت مخطوطتنا بهذا التحقيق هى النسخة الكاملة للكتاب . ويظهر أن مخطوطة الأسكوريال كانت ناقصة أو نسخت من أخرى ناقصة فزاد كاتبها ما يشعر بالتمام وهو قوله

وأغلب الظن أن مشكلة الطاقة الذرية ستظل شوكة فى حلق هيئة الأمم — وستعاد إلى لجنة الطاقة الذرية لتبحث فيها من جديد لعلها تقنع الدول الكبرى المتنافسة بأن تتفق على حماية نفسها من ويل هذه الذرة الجهنمية .

(نيويورك) عمر هليس

سكرتير معهد الشؤون العربية الأمريكية بنيويورك

« وقد تقدم القول فيه وبالله التوفيق » ، وهى عادة معروفة عند الوراقين كما حصل مثـــل ذلك فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى مثلا .

وأهمية مخطوطتنا لا تنحصر فى أنها النص الكامل للكتاب كما كتبه مؤلفه (أى أكثر من ضعف النص المطبوع) ، بل إن لهـا أهمية أخرى أكبر من ذلك ، وهى معرفة مؤلف هذا الكتاب على التحقيق . فقد ذكر المؤلف فى مخطوطتنا اسمه كاملا فى أثناء كتابه على عادة المؤلفين المتقدمين ، فقال فى أول البيان الرابع ، وهو جزء مفقود من النسخة الأسكوريالية : « قال أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب قد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا بنعمة الله ... » . وهو تصريح يبطل نسبة الكتاب إلى قدامة بن جعفر ، ويضع حداً فاصلا للنزاع فى مسألة مؤلف الكتاب ، كما أن مخطوطتنا زيادة على هذا تجعل الإسم الصحيح للكتاب ، وهو كتاب « البرهان فى وجوه البيان » .

وإنه وإن كنا لم نعثر على اسم هذا الكتاب ، أو اسم مؤلفه مذكوراً فى أى مرجع من المراجع المعروفة عندنا ، فقد وصلنا إلى أن هذا الكتاب ليس لقدامة وتحققنا من نسبته لأبى الحسين ، وليس ذلك فقط من أجل أن المؤلف قد ذكر اسمه فى أثناء كتابه بل من أجل أدلة أخرى مضمومة إلى هذا الدليل :

أولا : يذكر مؤلف الكتاب فى أثناء كتابه أربعة كتب له ، وهى : الإيضاح ، أسرار القرآن ، التعميد ، الحجة . وهذه الكتب الأربعة لم يذكرها أحد من مؤرخى قدامة فى فهرس كتبه أو ما يشبهها فى الإسم أو الموضوع ، كما أنهم لم يذكروا له كتاباً باسم « البرهان » أو « نقد النثر » .

ثانياً : وقد نسب إلى قدامة كتاب فى الكتابة ، ولكن هذا الكتاب لم يسمه قدامة باسم « البرهان » أو « نقد النثر » وإنما سماه « كتاب الخراج وصناعة الكتابة » ، وهو غير الكتاب الذى بأيدينا ، فإن كتاب قدامة هذا ، أو على الأصح النصف الثانى منه معروف ، وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلى بالآستانة ، وقد استنسخ شارل شيفر هذا المجلد الباقى من كتاب قدامة ، وهذه النسخة محفوظة الآن بدار الكتب الوطنية بباريس وقد استخرج دى غويه نبذا منها وطبعها تحت عنوان « كتاب الخراج » ، وهذه النبذ هى الأبواب الثانى والثالث والرابع والخامس والحادى عشر من المنزلة الخامسة ، والبابان السادس والسابع من المنزلة السادسة . واسم هذا الكتاب فى هاتين النسختين (الأصلية والمنقولة) « الخراج وصناعة الكتابة » ، وقد وصف ياقوت هـذا الكتاب فى ترجمة قدامة بقوله : « وله كتاب فى الخراج وصناعة الكتابة » ؛ وله كتاب فى الخراج رتبه مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه ، وكان على تسع منازل ، وكان ثمانية فأضاف إليه تاسعاً » . ويقول المطرزى فى كتاب الإيضاح شرح مقامات الحريرى (مخطوطة المتحف البريطانى) « وله تصانيف كثيرة منهـا كتاب « الألفاظ » وكتاب « نقد الشعر » ، وهو حسن للغاية طالعته ونقلت منه أشياء ، وقيل هو لوالده جعفر . ومنها كتاب صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوال منشودة ، وهو كتاب يشتمل على سبع منازل ، وكل منزلة منها تحتوى على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والبلغاء : « وقال ابن الجوزى فى المنتظم فى حوادث سنة ٣٣٧ بمناسبة موت قدامة ما نصه : « وله كتاب حسن فى الخراج وصناعة الكتابة » .

ويتضح من كل ذلك أنه كان لقدامة كتاب على منوال كتابنا ، وأن هذا الكتاب يسمى « الخراج وصناعة الكتابة » وأنه كان على تسع منازل أو سبع منازل وفى كل منزلة أبواب . وهـذا الوصف لا يتفق مع تبويب كتاب « البرهان » أو « نقد النثر » إذ أنه على أربعة أبواب تناولت كل ما قصد المؤلف كتابته عن الخراج وصناعة الكتابة ؛ وفضلا عن هذا فنحن إذا قارنا الجزء المطبوع من كتاب قدامة الخاص بالخراج ألفيناه مختلفاً عن القسم الخاص بالخراج فى كتابنا « البرهان » والنتيجة البديهية هى أن قدامة وأبا الحسين كتب كل منهما كتاباً فى الموضوع ولكن كلا منهما سلك مسلكه الخاص فى علاج الموضوع .

ثالثا — وقد رجح دى غوية فى مقدمته الفرنسية لكتاب الخراج المستخرج من كتاب قدامة فى صناعة الكتابة أن قدامة ألف كتابه هذا بعد سنة ٣١٦ بقليل ، وذلك أن قدامة تحدث فى أثناء كتابه عن مليح الأرمنى على أنه معاصر له ، ويشير أيضا إلى إغارة أسفار الديلمى على قزوين فى سنة ٣١٦ ، وإلى الشغائم التى جرت على يد مرداويج وأتباعه فى السنين التالية

لحوادث قريبة الوقوع . ونحن نعلم مما يقوله أبو حيان التوحيدى فى الإمتاع والمؤانسة (ج ٣ ص ١٤٥ — ١٤٦) أن قدامة عرض كتابه هذا فى سنة ٣٢٠ على علىّ بن عيسى حيث يقول « وما رأيت أحدا تناهى فى وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه . قال لنا على بن عيسى الوزير عرض علىّ قدامة كتابه سنة ٣٢٠ واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشاركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى » . فهذا الكتاب قد تم الفراغ من تأليفه قبل سنة ٣٢٠ قطعا . أما كتاب « البرهان » فلم يكن موجودا فى هذا الوقت ولنا على هذا ثلاثة أدلة .

أ — يقول أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم فى البرهان : « وقد رأيت شيخنا على بن عيسى رحمه الله يكاتب أم المقتدر » وإشارة أبى الحسين فى كتابه إلى وفاة على بن عيسى تدل قطعا على أن على بن عيسى لم يعش حتى يرى هذا الكتاب ، وقد مات على بن عيسى سنة ٣٣٥ ، وهو أمر يدل على أن أبا الحسين ألف كتابه بعد سنة ٣٣٥ .

ب — ويقول أبو الحسين أيضا « ومنه ترجمة لآل مقلة ولأبى الحسن بن خلف بن طياب رحمه الله » وقد كان أبو الحسن ابن خلف هذا حيا إلى سنة ٣٣٠ (راجع أخبار الراضى والمرتضى للصولى ص ٢٣٠ — ٢٣١) .

ج — ويقول أبو الحسين فى « البرهان » أيضا مشيرا إلى مقتل المقتدر على يد غلامه مؤنس : « وكان نتيجة هذا الإهمال وثمرة هذه الأفعال أن خرج السلطان فى جيشه على أحسن زينة لقتال غلام من غلمانه فقتل وحده من بين أهل عسكره وتفرق عنه الباقون ورجعوا موفورين » . وقد حدث هذا فى سنة ٣٢٠ (راجع المنتظم ج ٦ ص ٢٤٣) وأبو الحسين يقص هذه الحادثة على أنها قصة معروفة للعبرة وضرب المثل فيما يصيب ولاة الأمر عند إهمالهم ، ولا بد أن تكون قد مرت عليها سنوات أصبحت بها مثالا للعظة وضرب الأمثال ، فكتابه لا بد أن يكون قد ألف بعد هذا التاريخ .

والنتيجة التى نجمعها من كل ذلك هى أن قدامة ألف كتابه قبل سنة ٣٢٠ وأن أبا الحسين الف كتابه بعد سنة ٣٣٥ حسب ما جاء من نصوص تاريخية فى ثنايا الكتابين .

رابعا — من الكتب المعروفة على وجه التحقيق لقدامة كتابه « نقد الشعر » وقد عالج فيه الشعر وفنونه بوجه خاص . وقد عالج صاحب « البرهان » فى كتابه الشعر أيضا ، فلو أنه كان لقدامة لما احتاج إلى معالجة هذه الموضوعات مرة أخرى بمثل هذا البيان الكافى ، وفضلا عن ذلك فإن معالجة الشعر فى « البرهان » تختلف اختلافا جوهريا عنها فى كتاب « نقد الشعر » من الناحية الفنية والموضوعية ، وما قصيدة الأستاذ العبادى فى تحقيقه من مقارنات إنما هو مجرد افتراضات لا تقوم أمام الفحص . ومما يستحق أن نذكره من المقارنات أن قدامة فى « نقد الشعر » حينما يسوق أقوال المتقدمين من الفلاسفة يذكرها مجملا : « فلاسفة اليونان » ، فى حين أن صاحب « البرهان » يذكرهم بأسمائهم كأن يقول « قال أرسطوطاليس » .

خامسا — وقد كان مؤلف « البرهان » فقيها شيعيا من غير شك . ودليل ذلك منثور فى أثناء الكتاب . فمن ذلك اهتمامه بنقل أقوال أئمة الشيعة وذكره لهم دائما عند كل استشهاد بما يشعر بتشيعه كقوله « الأئمة عليهم السلام . الأئمة الصادقين . الأئمة المستودعين علم القرآن . روى عن الصادق عليه السلام » اهتمامه بنقل فقه الشيعة كاملا فى تعرضه لأقوال الفقهاء ، وترجيحه لآرائهم فى بعض الأحيان ظاهرة تدل على تمكنه فى نحلته الشيعية . وقدامة بن جعفر لم يكن من الشيعة ولا من فقهائهم كما هو معروف وكما يدل عليه ما كتبه عن الخراج ، وإنما كان نصرانيا فى الأصل وأسلم على يد الخليفة المكتفى بالله ، وإذا أسلم نصرانى على يد خليفة عباسى — وذلك إنما يكون عادة طمعا فى مناصب الدولة — فمن المستبعد أن يصير علويا متشيعا مرة واحدة . وما أورده الأستاذ العبادى فى توجيه صحة التشيع الظاهرة فى الكتاب من أن قدامة قد جارى بنى بويه بعد دخولهم بغداد سنة ٣٣٤ يرده النقد التاريخى ، وقد كتب قدامة كتابه فى الكتابة قبل هذا التاريخ بأربعة عشر عاما على الأقل ، ومات بعد دخولهم بغداد بوقت قصير .

سادسا — وصاحب كتاب « البرهان » يصر فى كل مناسبة على ذكر الرجال المشهورين من آل وهب معظما لهم فخورا

بهم كأن يقول « وقد كان شيخنا أبو على الحسن بن وهب رحمه الله ... » وقال أبو أيوب رضى الله عنه : « وقد ذكر أبو أيوب رحمه الله رجلا مشهورا بالبلاغة . ولو لم نتقدم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لكفى وأجزى » وأبو أيوب هذا هو سليمان بن وهب عميد آل وهب وجد المؤلف .

سابعا — وهناك أمر يجب التنويه إليه وهو أن البطليوسى فى كتابه « الاقتضاب شرح أدب الكتاب » قد كتب فصولا طويلة بنى عليها مقدمته فى شرح الكتاب (ص ٦٦ — ٩٠) وهذه الفصول تتفق فى لفظها فى معظم الأحيان تمام الاتفاق مع بعض فصول كتاب البرهان ، وفى بعض الأحيان تتفق معها مع تعديل طفيف ، ولكن البطليوسى لم ينسبها إلى أبى الحسين ولا إلى قدامة ، وإنما أشعر بنسبتها إلى على بن مقلة (المتوفى سنة ٣٢٧) ، ولا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب « البرهان » هو لابن مقلة ، وأن البطليوسى نقل عنه بعد أن أثبتنا أن « البرهان » ألف بعد سنة ٣٣٥ وبعد وفاة ابن مقلة بنحو ثمانى سنين ، كما أن شيوخ صاحب « البرهان » كما جاء ذكرهم « بالبرهان » لم يكونوا شيوخا لعلى بن مقلة ولم تكن له بهم صلة قريبة ولم يكن على بن مقلة شيعيا . والقدر المتيقن أن البطليوسى لم يحتسب على أى حال قدامة بن جعفر مؤلفا للكتاب الذى نقل عنه على فرض أنه نقل فصوله من كتابنا هذا . ومن المحتمل أن يكون « البرهان » قد نسب مرة إلى على بن مقلة كما نسب إلى قدامة ابن جعفر وجهل أمر صاحبه . ومن المحتمل أيضا أن يكون البطليوسى ومؤلف كتابنا هذا من قبل كلاهما قد نقل نقولا من كتاب لابن مقلة فى هذا الموضوع ، وهو أمر لم تساعدنا الظروف على تحقيقه .

وجملة القول أن مؤلف كتاب « البرهان » يجب أن تتوفر فيه من الشرائط :

(١) كونه شيعيا . (٢) أن تجمعه أواصر القربى بآل وهب . (٣) أن يكون قد ألفه بعد سنة ٣٣٥ . (٤) ألا تزيد أبواب كتابه على أربعة أبواب كاملة .

وهذه الأحوال لا تجتمع فى قدامة بن جعفر ، ولكنها يمكن أن تجتمع فى مؤلف آخر . وفى يدنا مخطوطة قديمة كاملة للكتاب ذكر المؤلف فيها إسمه فى متن الكتاب ، هكذا « أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب » فنحن على أن ننسب الكتاب إليه إلى أن يظهر لنا خلاف ذلك . ولم نجد ذكرا لهذا الكاتب أو لمؤلفاته فى المراجع والمظان المعروفة لنا . ومن غريب الأمر أن هذا الكتاب قد نسب إلى قدامة ابن جعفر فى طرة المخطوطة الإسكوريالية ، وكذلك فى طرة المخطوطة التى بأيدينا مع ورود إسم المؤلف فى أثناء الكتاب وهو أمر غفل عنه الناسخ ، وتفسير هذا التناقض يسير ، فإن الوراقين كانوا يعرفون قيمة قدامة الأدبية ويعرفون شهرة كتابه فى الأدب فلا يستبعد عليهم أن يضعوا إسمه على هذا الكتاب لتسهيل بيعه وتداوله ، وهذه طريقة معروفة عند النساخ والوراقين لا تخفى على المحققين . ونذكر مثلا قريبا لذلك كتاب « أسرار البلاغة » نشر بمصر وجاء فى خاتمة الكتاب أن مؤلفه أتمه فى سنة ٨٥٥ ومع ذلك نسب فى طرة الكتاب لبهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٠٣ وعرف باسمه لدى الوراقين . وفى كتب الفهارس ، وغير ذلك كثير .

وبعد فإنصافا للعلم والعلماء ، وإنصافا لأنفسنا كذلك ، لا يسعنا إلا أن ننوه فى ختام هذه الكلمة بأن عالمين جليلين كانا قد أظهرا الشك فى نسبة كتاب « نقد النثر » إلى قدامة بن جعفر ، وأنه لا بد أن يكون لكاتب آخر مجهول من أهل القرن الرابع . وهذان العالمان الفاضلان هما الدكتور طه حسين بك والأستاذ محمد كرد على ، فاستحقا منا التقدير والثناء . وها نحن أولاء قد قمنا بما تمليه علينا الأمانة العلمية بتقديم أدلتنا على أن الكتاب إسمه « البرهان » وأنه من تأليف أبى الحسين إسحق بن إبراهيم ابن سليمان بن وهب الكاتب ، وأن الجزء الذى نشر منه تحت إسم « نقد النثر » ليس إلا نحو ثلث الكتاب الأصلى الذى قد حررناه ونقدمه للطبع الآن ليكون بين أيدى العلماء فى القريب إن شاء الله ليصبح موضع بحثهم ونقدهم .

ولست أنسى هنا أن أقدم للعلماء الأستاذ العالم مجتبى مينوى بلندن زميلى فى تحقيق هذا الكتاب وإعداده للنشر ، فهو يشاركنى مسئولية إخراج الكتاب بما يتبعها من قبول أو نقد .

(المركز الثقافى الاسلامى بلندن) على حسن عبد القادر